كلية : التربية القائم

القسم او الفرع : قسم اللغة العربية

المرحلة: الرابعة

أستاذ المادة : د . زيد قاسم محمد

اسم المادة باللغة العربية : تيسير نحو

اسم المادة باللغة الإنكليزية : The Simplification of Arabic Grammar

اسم المحاضرة الأولى باللغة العربية: تيسير النحو العربي.. رحلة الألف عام من سيبويه إلى شوقي ضيف

اسم المحاضرة الأولى باللغة الإنكليزية :

"The Simplification of Arabic Grammar: A Thousand-Year Journey from Sibawayh to Shawqi Daif."

محتوى المحاضرة الأولى

محاضرة بعنوان: تيسير النحو العربي.. رحلة الألف عام من سيبويه إلى شوقي ضيف
مقدمة: "النحو صعب".. حقيقة أم انطباع؟
(ابدأ المحاضرة بهذا السؤال لجذب الانتباه)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

أيها الطلبة الكرام ، كم مرة سمعنا أو رددنا بأنفسنا عبارة "النحو صعب"؟ كم مرة شعرنا أن قواعد الإعراب الشائكة تقف حاجزًا بيننا وبين تذوق جمال لغتنا القرآنية والأدبية؟ هذا الشعور، وهذا الانطباع، ليس جديدًا عليكم ولا عليّ، بل هو قصة قديمة تمتد لقرون طويلة.

لكن هل النحو العربي وُلد صعبًا؟ أم أن طريقة عرضه وتعليمه هي التي جعلته كذلك؟

في محاضرتنا اليوم، سننطلق في رحلة تاريخية وفكرية ممتعة، لنتتبع خيوط هذه القصة. سنرى كيف بدأ النحو علمًا وصفيًا بسيطًا، وكيف تشعّب وتأثر بالفلسفة والمنطق، والأهم من ذلك، كيف ظهرت على مر العصور دعوات ومشاريع جبارة لإعادة النحو إلى أصله اليسير، أو "تيسيره". رحلتنا ستشمل محطتين رئيسيتين: جهود القدماء، وجهود المحدثين. هدفنا ليس فقط سرد التاريخ، بل فهم منطق كل محاولة، وتقييمها، واستلهام الدروس منها لواقعنا التعليمي اليوم. فهل أنتم مستعدون لهذه الرحلة؟

المحور الأول: ما هو "التيسير"؟ تحديد المفهوم

قبل أن نخوض في جهود الميسّرين، يجب أن نتفق على معنى "التيسير". فالتيسير ليس مجرد الحذف والتبسيط العشوائي، بل هو منهج له أصوله.

لغويًا: كلمة "التيسير" مشتقة من اليُسر، وهو نقيض العُسر. تحمل في طياتها معاني اللين والسهولة والتهيئة (ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص. ١١٤٧). فالميسِّر هو من يمهّد الطريق ويزيل العقبات.

اصطلاحيًا: التيسير في دراسة النحو هو، كما عرّفه محمد صاري، "عرض جديد لموضوعات النحو، وترسيخ لها بطرق حيّة جذابة فيها إبداع وابتكار" (أعمال ندوة تيسير النحو، ٢٠٠١م، ص. ٢٠٣).

لاحظوا معي الكلمات المفتاحية هنا:

عرض جديد: لا يعني إلغاء القديم، بل إعادة ترتيبه وتقديمه بمنظور مختلف.

طرق حيّة وجذابة: أي الابتعاد عن الأمثلة الجافة المصطنعة ("ضربَ زيدٌ عمرًا") إلى أمثلة من القرآن والحديث والشعر وحياتنا اليومية.

إبداع وابتكار: التيسير ليس عملية سلبية (حذف)، بل عملية إيجابية تتطلب التفكير في وسائل جديدة.

ومن المهم أن نعرف أن التيسير يشمل كل فروع اللغة، من نحو وصرف وبلاغة ودلالة (محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، ص. ٣٢٤).

المحور الثاني: رحلة التيسير عند القدماء

١. من البساطة إلى التعقيد: كيف تعقّد النحو؟

لم يكن النحو في نشأته مع الخليل وسيبويه معقدًا. كان علمًا وظيفيًا يهدف إلى تقويم اللسان وحماية القرآن من اللحن. لكن مع مرور الزمن، تحولت الوسيلة إلى غاية، وتأثر النحو بعلمين وافدين: المنطق اليوناني وعلم الكلام.

هذا التأثر أدى إلى:

١. المبالغة في التعليل: لم يعد النحاة يكتفون بالقول "الفاعل مرفوع"، بل أصبحوا يسألون: "ولماذا هو مرفوع؟ ولماذا علامة رفعه الضمة وليس الفتحة؟". هذه العلل الفلسفية أرهقت الطلاب وأبعدت النحو عن وظيفته العملية (دليلة مزوز، الأحكام النحوية بين النحاة وعلماء الدلالة، ص. ١٢٠).

٢. الافتراض والتقدير: بدأ النحاة يفترضون وجود "عوامل" محذوفة و"مقدرة" لتستقيم القاعدة، مما أدخل الدرس النحوي في متاهات ذهنية.

والأثر المباشر لهذا التعقيد يرويه لنا أبو البركات الأنباري في قصة طريفة ومعبرة عن ثلاثة نحاة في مجلس واحد: أحدهم لا يُفهم منه شيء لشدة تعمقه الفلسفي (الرماني)، وثانيهم يُفهم بعض كلامه (الفارسي)، وثالثهم يُفهم كل كلامه لبساطته ووضوحه (السيرافي) (نزهة الألباء، ص. ٢٣٤).

٢. ثورة ابن مضاء القرطبي: أول مشروع متكامل للتيسير

في القرن السادس الهجري، ومن قلب الأندلس، ظهر عالم نحوي فذّ هو ابن مضاء القرطبي. متأثرًا بالمذهب الظاهري الذي يرفض التأويل والقياس في الفقه، قرر ابن مضاء تطبيق هذا المنهج على النحو. كتابه الصغير في حجمه، الكبير في أثره، "الرد على النحاة"، كان بمثابة ثورة فكرية قامت على ثلاثة أعمدة رئيسية:

إلغاء نظرية العامل: وهي الفكرة القائلة بأن هناك كلمة "تعمل" الإعراب في كلمة أخرى (فالفعل يرفع الفاعل وينصب المفعول به). قال ابن مضاء ببساطة: نحن لا نحتاج لهذه الفكرة الافتراضية، يكفي أن نقول "هذا فاعل" و "هذا مفعول به". وظيفتهما في الجملة هي التي تحدد حالتهما الإعرابية وليس "عامل" خفي (خليل عمايرة، العامل النحوي بين مؤيديه ومعارضيه، ص. ١٥).

إلغاء العلل الثواني والثوالث: طالب بالوقوف عند العلة الأولى المباشرة (لماذا الفاعل مرفوع؟ لأنه فاعل). أما العلل الفلسفية التي تبحث في طبيعة الحركات وصفاتها، فاعتبرها لغوًا لا طائل من ورائه (الرد على النحاة، ص. ١٤).

رفض القياس: دعا إلى الاكتفاء بما سُمع عن العرب، وعدم اختراع قواعد وتراكيب لم يقولوها بناءً على القياس.

مشروع ابن مضاء كان جريئًا وصادمًا في عصره، لكنه سيصبح لاحقًا المَعين الذي استقى منه كل دعاة التيسير في العصر الحديث.

٣. عبد القاهر الجرجاني: نحو المعنى لا نحو الإعراب

وفي نفس الفترة تقريبًا، ظهرت في المشرق دعوة تيسيرية من نوع مختلف، قادها الإمام عبد القاهر الجرجاني. لم يدعُ الجرجاني إلى إلغاء القواعد، بل إلى تغيير زاوية النظر إليها. في كتابه "دلائل الإعجاز"، أوضح أن قيمة النحو ليست في تحديد "فاعل مرفوع" و"مفعول منصوب"، بل في إدراك كيف يؤدي هذا الرفع والنصب إلى اختلاف المعنى.

هذا ما أسماه **"نظرية النظم"**. فالتغيير في ترتيب الكلمات وحركاتها الإعرابية ليس تغييرًا شكليًا، بل هو تغيير في صميم المعنى والصورة الذهنية (محمد أحمد عرفة، النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة، ص. ٢٣). بذلك، نقل الجرجاني النحو من علم جاف إلى علم حي مرتبط بالبلاغة والتذوق الجمالي.

المحور الثالث: التيسير في العصر الحديث: إحياء وتجديد

(انتقال إلى الجزء الثاني من المحاضرة)

ننتقل الآن، أيها الكرام، إلى العصر الحديث. هنا، لم تعد قضية تيسير النحو قضية فردية، بل أصبحت ضرورة تفرضها متطلبات التعليم العام ونشر اللغة. وقد ظهرت شخصيات بارزة قادت هذا التوجه، نستعرض أبرزها:

١. شوقي ضيف: المُحيي لفكر ابن مضاء

يُعد الدكتور شوقي ضيف الأب الروحي لدعوات التيسير الحديثة. أعظم ما فعله هو إخراج كتاب ابن مضاء "الرد على النحاة" من غياهب المخطوطات وتحقيقه ونشره عام ١٩٤٧م. لم يكتفِ بذلك، بل تبنى أفكاره ودافع عنها بقوة، ودعا إلى:

إعادة ترتيب أبواب النحو بشكل منطقي يخدم المتعلم.

إلغاء الإعراب التقديري والمحلي من المراحل التعليمية الأولى، تبسيطًا على الطلاب.

التمييز بين "نحو تعليمي" بسيط، و"نحو علمي" متخصص للباحثين.
(شوقي ضيف، تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا، ص. ٤٩).

٢. إبراهيم مصطفى: مشروع "إحياء النحو"

قدم الدكتور إبراهيم مصطفى المشروع الأكثر جذرية وشهرة في كتابه "إحياء النحو". حاول فيه إعادة بناء القواعد على أسس جديدة تمامًا:

الرفع للإسناد: كل كلمة يُسند إليها معنى (كالمبتدأ والفاعل) تكون مرفوعة.

الجر للإضافة: كل كلمة تُضاف إلى أخرى تكون مجرورة.

النصب للفضلة: ما عدا ذلك، يكون منصوبًا، واعتبر الفتحة (علامة النصب) مجرد حركة خفيفة يميل إليها اللسان العربي (إحياء النحو، ص: أ، ز).
مشروعه أحدث ضجة كبرى بين مؤيد ومعارض، ورأى فيه البعض إحياءً لآراء قديمة أكثر من كونه تجديدًا (حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي، ص. ٦٨).

٣. عباس حسن: بين التنظير والتطبيق

جمع الدكتور عباس حسن بين الجانبين: نظّر للتيسير في كتابه "اللغة والنحو بين القديم والحديث"، ثم قدم تطبيقًا عمليًا في موسوعته الشهيرة "النحو الوافي"، التي تعتبر اليوم من أهم المراجع التي حاولت عرض المادة النحوية التقليدية بأسلوب عصري ومنهجية واضحة.

٤. مهدي المخزومي وإبراهيم أنيس: دعوات أكثر جذرية

مهدي المخزومي: دعا إلى إعادة هيكلة النحو بالكامل، متأثرًا بعلم اللغة الحديث، فقسم الكلمة إلى أربعة أقسام وأعاد تصنيف الكثير من الأبواب النحوية (في النحو العربي نقد وتوجيه، ص. ١٦).

إبراهيم أنيس: ذهب إلى أبعد من ذلك، حيث شكك في القيمة الدلالية للإعراب أصلًا، ورأى أنه في كثير من الأحيان مجرد ظاهرة صوتية لوصل الكلام، وليس له وظيفة نحوية أساسية (من أسرار اللغة، ص. ٢٢٠).

خاتمة وتوصيات: إلى أين نتجه؟
أيها الطلبة الكرام ،
لقد رأينا أن السعي لتيسير النحو ليس "موضة" حديثة، بل هو تيار فكري عميق ومستمر في ثقافتنا. من ابن مضاء والجرجاني، إلى شوقي ضيف وإبراهيم مصطفى، كانت هناك دائمًا محاولات لجعل هذا العلم أقرب إلى الأفهام وأنفع للمتعلمين.

ماذا نستفيد من كل هذا؟

النحو ليس مقدسًا: قواعد النحو هي وصف لكلام العرب وضعه البشر، وبالتالي هي قابلة للمراجعة والتطوير في طريقة عرضها.

التيسير لا يعني الإلغاء: الهدف ليس حذف قواعد اللغة، بل تقديمها بطريقة منطقية ووظيفية تربط القاعدة بالمعنى والاستعمال.

الحاجة إلى مستويات متعددة: نحتاج إلى "نحو مدرسي" مبسط وواضح للمراحل الأولى، و"نحو جامعي" أكثر تفصيلًا للمتخصصين، و"نحو للباحثين" يتعمق في فلسفة اللغة وتاريخها.

إن الأمانة تقتضي منا أن نعيد النظر باستمرار في مناهجنا وطرق تدريسنا، وأن نبني جسرًا متينًا بين تراثنا النحوي العظيم وعقول أبنائنا اليوم، ليعود النحو مفتاحًا لفهم كنوز لغتنا، لا قفلاً يصعب فتحه.

شـــكرًا لحســـن اســـتماعكم،

والآن يسـعدني اسـتقبال أسـئلتكم

ومداخلاتكم.